

المجبل

يستمد المجبل هيئته من عدة عناصر ، أهمها ثباته وارتفاعه وضخامته . أما صخوره فهي مثل الأظافر التي تחדش من يحاول الاقتراب منه . وعلى الرغم من أن الرياح العاصفة تجتاح في طريقها كل شئ ، إلا أنها لا تستطيع أن تذال من صلابة المجبل ، فهي تصطدم به ، ولا تلبث أن تنكسر على صدره ، وكذلك الأمواج التي تفتت الشاطئ ، لا يمكن أن تذال من جسد المجبل ، الذي يتلقاها في حالة عنفوانها فيكسر حدتها ، ويجعلها تتناثر قطرات من حوله .

المجبل شامخ دائما ، سواء عندما يتجاور مع البحر ، أو يلامس الصحراء . ولأنه يمتنع على الجميع ، فلا يلجأ للسكن فيه إلا الحيوانات أو الطيور التي تأنف من أن يمسه بها أحد ، والتي من طبعها المنفور من المخلوقات الأخرى . يعيش على جوانبه الماعز الجبلي ، وتتخذ النسور في قممه أعشاشها ، وأحيانا تنمو على حوافه بعض الأشجار التي يرويها ماء المطر ، النازل مباشرة من السحاب .

ما الحكمة من وجود المجبل ؟ يخبرنا القرآن الكريم بأنه من الرواسي التي وضعها الله في الأرض لكي لا (تميد) بأهلها ، أي تتحرك وتهتز كما يحدث في لحظات الزلازل ! فالجبال إذن هي الأوتاد التي تتماسك بها الأرض ، حتى تصلح عليها حياة البشر . وبالتالي فهي تستحق عندما نراها أو نمر إلى جوارها أو نظير فوقها أن نشكر الله تعالى على ما أنعم به على أهل الأرض .

لكن الإنسان منذ قديم الزمان لم يترك المجبل في حاله . فقد حاول سكناه ، كما فعلت ثمود ، أو نقب فيه أنفاقا كما فعلت كل بلاد أوروبا تقريبا : أنفاق يصل بعضها إلى أكثر من عشرة كيلومترات ، وهي مسفلتة ومضاءة من الداخل وتعبورها السيارات بسرعة وسلاسة . وعندما كنت أعبرها أقول لنفسى : ماذا لو غضب الجبل فأطبق علينا ونحن تحت جسده الهائل ، وفي قبضته الصخرية ؟

بعض الجبال طيبة القلب ، فهو يسمح للإنسان بأن يتسلقها ، وينقب فيها ويصنع المتماثيل ، أو يستخرج من مناجمه المعادن . لكن بعضها الآخر غضوب ، يتفجر داخله بالنار ، وتقذف أضلاعه بالحمم ، فيملأ الجو بغيار لا يصلح للتنفس ، بل إنه يقتل كل مظاهر الحياة . وهكذا يحاول المجبل أن يذكرنا دائما بالوجه الغاضب حتى لا ننسى وجهه الوديع .

تتفاوت الجبال في الحجم ، والمساحة ، والارتفاع ، كما تختلف ألوانها بين الأبيض والأحمر والأسود . لكنها جميعا ترجع في التاريخ إلى نشأة الأرض ذاتها . ومن الواضح أنها سوف تنتهى بنهايتها . وقد أخبرنا الله تعالى ، خالق الأرض والسماء ، أنها ستكون زلزلة كبرى تخرج فيها الأرض أثقالها ، وعندئذ (تميد) الجبال التي كانت تمسكها ، فينهار كل شئ ويبدأ خلق جديد ، كما يقول القرآن الكريم : " كما بدأنا أول خلق نعيده . "

عندما تجرأ موسى عليه السلام فطلب من الله تعالى أن يراه بالعين المجردة ، قال له : " لن ترانى ولكن انظر إلى المجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا " . وتلك دلالة أخرى على أن خالق المجبل ، هو وحده ، الذي يمسكه ، وهو المقادر أيضا على أن ينسفه نسفا . وعند انتهاء الدنيا ، سوف تتحول الجبال المضخمة الراسخة : مثل ذيف الثلج المتطاير في الجو !